

قالت : ان اُصدقاكم ، اليوم ، مختلفون . فهم اُصدقاء مخلصون . ألم تذكر الشيوخيين ، مثلا ، بالخير ؟

قال : على الرأس وفوق الحاجب . الا أن غذاعنا الاساسي هو زيت الزيتون . نستحلي اعواد الخرفيش الا أنها تنقصف . لا باس بالبرق ولكنه لا يزيل ليلنا الصامت . سنظل نجرهم ونجرهم ونجرهم ، في صمت ، حتى يطعمونا من زيتونهم . صياح الديك لا يطلع الصباح . ولكن ديوكنا ستصبح حين يطلعونه . فعلى اُصدقائنا أن يتعلموا المنطق بلغتنا ، لغة الارض والدواب والحراث — الصمت الدؤوب !

وكان القوم الغرباء يهزون رؤوسهم ، بصمت ، استحسانا . واحببت أن اقاطعه قائلا : لو كان كلامك صحيحا لكنت أنا ، سعيدا ابا النحس المتشائل ، الصامت ذلا ، صديق الفلاحين الاول !

لولا انني تذكرت ماضي النابيح وانني كنت اتكلم بالوشاية ولا اصمت !
ثم أتتني خاطرة عجيبة حقا وهي انني ، على طول باعي بالوشاية ، لم استطع ان اشي بصمت رجل صامت . فصمت !

وفيما أنا في هذه المناجاة الصامتة ، بيني وبين نفسي ، اذا بامرأة عجوز ، هزيلة كعمود ذرة جاف ، تدخل علينا دامعة العينين وهي تصيح : السر مات ، يا ابا محمود ، فعلام تتستر !

فهرع ابو محمود نحوها واخذها بذراعيه ودفنعا محاولا أن يخرجها الى الخارج . فابت . فظل يحوطها بذراعيه وقد أسند رأسه الى صدرها وأجهش بالبكاء كالاطفال وهي تخفف عنه وتشاطره البكاء ونحن مذهولون والقوم الغرباء ينسحبون من المضافة واحدا واحدا فبيتلعهم الليل البهيم وقاتلهم يقول : السر مات . ولكن علينا ، غدا ، أن نعيش !

قضينا تلك الليلة مستيقظين وابو محمود يروي لنا أعجب قصة سمعناها عن شاب ضرير من اهل القرية ترك قريته ، في عام ١٩٤٨ ، مع قوافل النازحين ، بلا قوافل ، الى بلاد العرب الواسعة . ثم تسلل عائدا الى قريته بعد قيام الدولة . فظل اهل القرية يحفظون فيما بينهم أمر عودته . فأووه وأطعموه . واحترف صناعة الحصر والمكانس . فزوجوه . وادعوا ان زوجه هي امرأة اخيه الثانية ، وان اولاده هم اولاد اخيه منها . وحفظوا السر هم واولادهم من بعدهم فتكاثر اولاده وتكاثر حفظة السر فلم يبلغ آذان السلطة على الرغم من تكرار التطويق طول الاعوام العشرين الماضية . وكان يموت مختار ويولون مكانه مختارا فيختار لهم ما يشاؤون من الوشاية الا هذا السر الذي اُصبح كالعرق الدساس لا يدسون على بعضهم البعض به ، او كيقظة الضمير الذي يجب الا يوقظ .

حتى شاخ السر فواماه الاجل الليلة فدفنوه صمنا وبكوا عليه صبيرا .

— ومن تكون تلك المرأة التي اقتحمت علينا المضافة ؟

— أم اولاده .

— ومن تكون لك ؟

— والدتي !

— خفف عنك . لقد عاش عمره ، رحمه الله !

— ولكنني لم أعشه . كل يقول هذا والدي . أما انا فأنكرته حتى اعيش .